الفصل الثاني:

تشخيص الداء

وإذا كنا قد استعرضنا في الصفحات السابقة الصورة الكبرى لمجرى التقهقر في دفع الروح الإسلامي الحضاري في الأمـة، على ما حققه ذلك الروح في العصور الماضية من التألقات والتراكمات العمرانية، فإن المطلوب اليوم هو معرفـة ما تمّ على وجه التحديد من تغيرات وانحرافات في فكر الأمة، وفي نفسيتها ووجدانها، وأثر ذلك في الإنسان المسلم فرداً أو جماعـة، ومعرفـة وجوه القصور التي أسهمت في تعويق جهود الإصلاح، لينتهي البحث بعد ذلك إلى محاولة الإسهام في العلاج واستكمال الأدوات؛ حتى تنال الأمة احترام الإنسانية وتقديرها، وتجد الآذان مصغية لما تطرحه من القيم السامية والتحديات الروحية والأخلاقية.

أولاً: تشوهات وانحرافات في فكر الأمة وثقافتها

السؤال المهم الآن هو ما أهم هذه التشوُّهات والانحرافات الفكرية والثقافية؟ وللإجابة عن هذا السؤال فإن من الممكن أن نتبين ستة أنواعٍ منها نتناولها بشيءٍ من التوضيح في الصفحات الآتية:

التشوّه الأول: تشوّه الرؤيـة الكُلّيـة

أول هذه التشوهات وأخطرها كان تشوه الرؤيـة الكونية الإسلامية، التي تشكل إطار فكر الأمـة وثقافتها؛ بحيث لم تعد رؤيـةً كونيّـة توحيدية شمولية إيجابية قادرةً على أن تقدم الدليل والهداية الكلية لفكر المسلم وضميره

وعلاقاته ونظمـه.

فالرؤية الكونية الإسلامية للإنسان تتلخص في ثلاث قضايا أساسية عامة هي:

- في الغيب: إيمانٌ بالله الخالق وحده لا شريك له.
- وفي الحياة: حسُّ المسؤولية، وقصد الخير والعدل، والسعي بالإصلاح والإعمار.
- وفي الآخرة والمآل: مواجهةُ المصير، وحصيلةُ العمل -برحمة الله - تكون وَفْقَ الجزاء العادل، "إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌ".

ولذلك نجد الإيمان والعمل الصالح -في الرؤيـة الكونية القرآنية- لا ينفصمان، فغاية الإيمان هو العمل الصالح، والعمل الصالح هو أعمال كلّ جوارح الإنسان، لا فرق بين عمل وآخر، حتىٰ لو كان مثقال ذرة، حيث يتقرر نوعه وبعده الروحي علىٰ أساس قصد الخير منه وجهد الإتقان فيه. ولذلك كان وعدُ الله لعباده المؤمنين بالتمكين مشروطاً بالإيمان، وأن يكون مصحوباً بالعمل والأداء، وأن يكون العمل صالحاً مستصحباً روح الإحسان والإتقان والاجتهاد.

إن النوايا وحدها لا تكفي لاستحقاق الاستخلاف والتمكين في الأرض، فذلك له ثواب الآخرة، أما التمكين والاستخلاف في الأرض والتوفيق في العمل في الدنيا فمشروطٌ بالإحسان والإتقان والاجتهاد، فذلك المنهج هو الذي يهدي -بتوفيق الله- إلىٰ السنن، وإلىٰ وجوه الحق والحقيقة في

الأداء، وإلى التوفيق في العمل والنجاح فيه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ...﴿٥٥﴾﴾ [سورة النور: ٥٥].

هذه الرؤيـة الكونية الشاملة الواضحة أصابتها على أيدي جمهرة المفكرين المدْرَسِيين المعزولين المنعزلين المنقطعين للدراسة والتأملات والأبحاث النظريـة، المركِّزين على حالات أفراد المجتمع وحاجاتهم، تشوهاتٌ خطيرةٌ، أسهَمَتْ -وبكل حسن النية، وعلى المدى الطويل- في ذبول روح الإسلام وقوة دفعها في رؤية الأمة، ومكَّنت لعوامل التخلف في كيانها كي تفعل فعلها؛ بحيث تخمد طاقـة التجدد فيها، وتسلم الأمـة إلى حالة من السلبية وانعدام الوزن، وتُقْتَلُ فيها كل إرادة للبحث والتنقيب والتجدد والدفع، وتسلم نفسيتها وكيانها إلى منحدرات المحاكاة والتقليد، ويُهدم فيها معنى الجماعة والأمة وتكافلها، وتنهار مؤسساتها، وتتمزق وحدتها.

نلمس هذا بوضوح في الرؤية التي يقدمها الفقه والكلام، ويكون بها أسس التكوين التربوي والنفسي للفرد المسلم، فهي -في جوهرها- رؤية فردية لا رؤية جماعية، رؤية تنبثق من طبيعـة العلاقة بين العلماء والعامـة، وهي تتعلق بالشؤون الشخصية لا بالشؤون العامة، ولا بأنظمتها ومبادئ تسييرها وطبيعة مكوناتها وروابطها، وفي مثل هذه الرؤية وهذا الفكر لا يكون للتربية والمشاركة السياسية والعلاقة الجماعية وشؤون الحكم وموازين الإخاء والعدل والشورى أي دور في تسيير الحياة العامة للأمـة. وهي في نهاية المطاف رؤية سلبية لا تتفاعل مع كل أبعاد الحياة ولا تنفعل بها، ولا تتابع

مجرياتها ومتغيراتها، ولا تدفع عجلة أدائها الحضاري.

فالهم الحاضر والشغل الشاغل للعاكف في المسجد هو الانشغال بما يعبر عنه بمصطلح الرؤية القرآنية: "الذكر" و"الشعائر" التي تصبح في منطق هؤلاء المنقطعين إلى الذكر والدرس في المساجد محصورةً في "العبادات" كما عبر عن ذلك مصطلح علم الفقه، فيسهبون في تفصيل أدق حركاتها وسكناتها، وينقسمون نحوها مدارسَ ومذاهب ويتوزعون بشأنها شيعاً وأحزاباً، فانصبّت على شؤون الحياة الفردية دون شؤون الحياة العامة أو السياسية، وليطلقوا عليها مصطلح "المعاملات" كما عبر عن ذلك علم الفقه.

والمقصود بالمعاملات مجموع المعالجات والضوابط الفقهية القانونية لشؤون تعاملات حياة الفرد المسلم، وما يتعلق بها من القواعد والعقود. وهذه تكاد تتجرّد من البُعد الروحي، لأن أداء أي معاملة أو عدم أدائها هو لأنها أمرٌ دنيويٌّ لا يتعلق بمزاولته ثوابٌ، ولا يكاد يلحق بتركه أو عدم مزاولته إثمٌ أو عقابٌ.

إنّ هذه الرؤيـة الفقهية واهتماماتها تختلف كلية عن الرؤية القرآنية التي تنظر إلى الإنسان نظرة شمولية، لا تفرق بين مسؤولياته الفردية في حفظ النفس ومسؤولياته الجماعية في حفظ المجتمع والأمة، ويشمل بعدها الروحي كلَّ أعمال الإنسان، وتجعل من كل أعماله دون تفرق "عبادة" بحسب الغاية والقصد، حتى إن كان ذلك من أعمال البضع وشهوات النفوس. فحياة الإنسان المسلم في الرؤيـة القرآنية كلها **ذكر وجهاد**، وكلها **تعبد وعبادة**.

فحياة المسلم في الصلاة والدعاء والصوم والزكاة وتلاوة القرآن وتعظيم الشعائر وأداء المناسك تحيي ضمير المسلم، وتعينه على أداء واجباته والوفاء بالتزاماته: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤]. ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾ [البقرة: ١٩٨]. ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣]. ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]. ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩]. ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

حياة المسلم هي في العمل والسعي في كلِّ شؤون حياته الخاصة والعامة وفق الرؤية القرآنية، وهي كلُّها جهاد واجتهاد في كلِّ شيء يفعله، جهاد في طلب العلم، وفي طلب الرزق، وفي تهذيب النفس، وفي القيام بواجبات العدل وحماية المستضعفين، والسعي في حاجات الأمة، والذب عن ديار المسلمين، وفي تبليغ دعوة الحق والدين.

إن هذا الجهاد والاجتهاد في شؤون الحياة الإسلامية من أهم غايات أعمال الذكر في حياة المسلم؛ لأن حياةَ المسلم كلٌّ لا يتجزّأ في قصد الخير وترشيد السعي اتباعاً وطاعةً للحقِّ سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

فبقدر ما كانت الرؤيـة الكونيـة الإسـلامية صافية فعالة شمولية إيجابية؛ كانت رؤيةُ عصر العزلة والمدرسية -فكرياً- رؤيةً منكفئةً على نفسها في جُـلِّ ممارساتها، وكانت ناقصةً، جزئيةً، سلبيةً، وكانت عملياً في حياة الناس ممارسةً قبليةً عرقيةً فرديةً أنانيةً. وسوف نرى فيما بعد آثار هذه التشوهات الخطيرة في مفاهيم الأمـة الثقافية، وفي بنائها النفسي وأدائها الحضاري؛ بحيث بلغ بها الحال إلى ما هي عليه الآن من العجز والتخلف والهوان.

التشوّه الثاني: التشوّه المنهجي

والتشوه الثاني الذي نجم عن عزلة العلماء والمفكرين وعزلهم هو -في أحسن حالاته- تشوهٌ معرفيٌّ منهجيٌّ، حَوَّل الفكر الإسلامي إلى فكرٍ نظريٍّ؛ غارقٍ في تأملات نظرية مدرسية، لا تجد طريقها إلى الحياة الاجتماعية بالتنقيب والملاحظة والتجريب، وهو تشوه أدى إلى عقمٍ منهجيّ خطير، جعل المعرفةَ عمليةَ استظهارٍ وتقليدٍ ومحاكاة، يغيب فيها كل أثر فعّال لعنصري الزمان والمكان، ومعرفة سنن الطبائع في الخلائق والكائنات.

وقد ساعد على إحداث هذا التشوّه المنهجي -إلى جانب العزلة- الطبيعةُ النظريةُ الميتافيريقية الصورية للفلسفة والمنطق الإغريقي، وما أدى إليه الانبهار بهما وتأثيرهما على المناخ الفكري للأمة من إضعاف الفكر العملي

التجريبي، والفضولِ العلمي الذي دعت إليه المفاهيم الإسلامية: في النظر، وفي السير في الأرض، وفي التفكر والتدبر، وفي القياس والمقارنة. وقد أدّىٰ ذلك كلّه إلىٰ العجز الفكري والتوسع في طلب النصوص، وإضفاء قهر القدسية عليها، مداراة منهم لذلك العجز الفكري، كما ضَعُفَتْ أدواتُ الاجتهاد ووسائله الضرورية اللازمة لتوليد المعارف الإنسانية التي تتكامل مع معارف الوحي وهدايته، وتوليد المعارف اللازمة لنماء الأمة واحتواء المتغيرات، ولإمدادها بما تتطلبه من فكر قادر علىٰ مواجهة التحديات، والإفادة من الإمكانات.

وبسبب هذا التشوّه المعرفي المنهجي بقيت منطلقات العلوم الاجتماعية في الفكر الإسلامي علىٰ هيئة عناوين ومبادئ مجردة، وعلىٰ شكل مصادر ثانوية في ميدان علوم الفقه وأصوله، واقتصر مداها ودلالاتها النظرية علىٰ الحياة الفردية.

حتىٰ حين تهيأت الفرصة لأحد كبار علماء المالكية، بما تيسر لـه من الممارسة والاشتغال الواسع بالسياسة والحياة العامـة، أن يفتح أمام الفكر الإسلامي باب المعرفة الإنسانية الاجتماعية، ويكشف -مبدعاً- الكثير الثمين من مكنونات أسرارها، ومغاليق أبوابها، وفهم طبائعها وعوامل تفاعلاتها ومتغيراتها، ومعرفة أوجه التأثير فيها في كتابه العَلَم "المقدمـة"،[1] فإنّ هذا الفكر المبدع -وبسبب عقلية العزلة - قد هُمِّش، كما هُمِّش فكرُ كثيرٍ سواه من المبدعين.

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ، ١٣٣٢-١٤٠٦م) صاحب كتاب المقدمة.

ولم يكن كتاب ابن خلدون من قراءات العلماء، ولم تكن مواضيعه من اهتماماتهم، وبقي مشروع البحث في آيات العلم والمعرفة السننية الحية مشروعاً معطلاً لم يكتب له -مع جدب الحياة العلمية المدرسية النظرية النصية- النهوض، حتى صحت الأمة على كنوز المعرفة الاجتماعية التي شهدها الغرب -على أساسٍ من منطلقات ابن خلدون ومنهجه السنني في مجالات العلوم الاجتماعية في التاريخ وفلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية- والتي فتحت للغرب أبواباً وآفاقاً واسعةً مكنت لأممه من أن تزود ناشئتها بروح المبادرة والقدرة الإبداعية، وإقامة التنظيمات الاجتماعية، ومواكبة المتغيرات، ومواجهة التحديات.

ولا بأس أن نسوق هنا مثلاً نوضح به أثر تشوه المنهجية في رؤية طلاب العلم واهتماماتهم وأسلوب معالجاتهم للقضايا الاجتماعية، التي تُظهِر حقيقة عزلتهم في زوايا الحفظ والاستظهار. فقد كان أحد فضلاء المفتين في إحدى البلاد الإسلامية يلقي خطبة جمعة عالج فيها موضوع الطهارة، وكانت معالجته للموضوع -والحق يقال - بأسلوبٍ سلسٍ بليغٍ وضَّح فيه للسامعين معاني الطهارة الدينية وأحكامها، وما يزيلها وما لا يزيلها وفق أفضل ما تقرره وتعرضه كتب الفقه وأحكامه.

وبعد انقضاء الصلاة -وعلى عادة الرجل وكرم خلقه في استقبال الناس في مكتبه في المسجد- سلمتُ عليه وجلستُ إليه وذكرتُ له -بكل الأدب واللباقة وحسن المدخل اللائق بعلمه ومكانته وكرم خلقه- سروري من خطبته وبلاغة عرضه وسلاسته وشمول تعرضه لأحكام الموضوع الفقهية،

ذاكراً لـه أن الخطبة في رأيي كان ينقصها التعرض لموضوع النظافة وتحقيق الوقاية الصحيحة بشكل متكامل، مشيراً إلى أن عدم إيضاح هذا الجانب وإغفاله قد يؤدي إلى استهانة العامة بالنظافة وعدم الوعي بأهميتها، والنظر إليها على أنها قضايا ثانوية شخصية تثقل الكاهل بلا ضرورة، بل لعل بعض القضايا التي تمَّ عرض الموضوع من خلالها تحمل على قبول التلبس بالقذارة دون حرج شرعيّ، مثل النخامة التي قد تحمل أمراضاً معديةً، وكذلك بعض ما يلحق الثياب من القذارات التي لا تنقض فقهياً -لا صحياً- الطهارة ولا تزيلها، وبذلك نكون -ونحن نعلّم الناس الطهارة- قد علّمناهم على عدم المبالاة بالقذارة، وعلى الاستهانة بالنظافة وبمتطلبات حماية الصحة العامة.

وكان حواراً علمياً ودياً بيننا تقبَّله فضيلته بصدر رحب، مما يدل على أننا في حاجة إلى تبادل الرأي، وتوسيع دائرة المعرفة، وفهم إشكالات حياتنا وثقافتنا، وإصلاح منهج المعرفة، وإزالة العُزلات، وتجنب أحادية المعرفة.

ومن المهم هنا الإشارة إلى أنه حتى حين يشير بعضهم إلى موضوع النظافة في مثل هذه المواقف فإنه يقف بها عند حد أخذ الزينة حين ارتياد المساجد للجُمع والجماعات. إن التوعية بشؤون النظافة والوقاية الصحيّة تُعَدُّ في الحقيقة جزءاً هاماً من الهدف من الطهارة التي عبر عنها سلوك الرسول القدوة ﷺ حينما كان يأمر بها المجتمع من حوله، حتى إنه ﷺ حينما رأى فِناء دار من دور المسلمين في حالة من الفوضى أمرهم بنظافته والعناية به، محذراً إياهم من أن يتهاونوا في النظافة، ودعاهم إلى العناية حتى بأفنية دورهم، وألا يتشبهوا باليهود في إهمالهم للنظافة. ويبدو أن جزءاً كبيراً من الأمة قد أصيب

اليوم بما كان عليه اليهود من الأمراض النفسية والاجتماعية، التي كانت سائدة فيهم على عهد الرسول ﷺ.[1]

وبسبب التشوّه المنهجي أصبحت المعرفة نصيةً حرفيةً جزئيةً تقوم على التقليد والمتابعة والمحاكاة والاستظهار، وغرقت في التعقيد والحواشي والمختصرات. وجُزِّئَتْ المعرفة، وباعدت بين العقيدة وممارسة الحياة، فاختص فيها علمُ التوحيد بالعقائد المجرَّدة أو ما يسمى "علم الكلام" الذي اتسم في كثير من جوانبه بالجدليات والسفسطات اللاهوتية، وانفصل "علمُ الفقه" عن علم العقائد، واستقل بشؤون تفاصيل ممارسات الحياة الفردية، معتمداً في دراساته واجتهاداته على منهج يعتمد القياس الجزئي على ما سلف من حالاتٍ متفرقةٍ دون أن تؤخذ فيه الصورةُ الكليةُ في الحسبان، وأصبح جُلُّ ما يعتمد عليه المتأخرون هو المفاهيم اللغوية للنص، فتبذل غاية الجهد في طلبه، ولو بالتغاضي عن ضعف بعض الروايات أو غرابتها.

وهكذا أصبحت المعرفة النصِّية في عصور العجز والجمود والتقليد غايةً تُطلَب ليغطي قهرُ القداسة عجزَ المعرفة، وفي الوقت نفسه تُستخدَم مادةً

---

(١) فقد جاء في الحديث: "حدثنا محمد بن بشار، جدثنا أبو عامر القعدي، حدثنا خالد بن إياس، عن صالح بن أبي حسان، قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: "إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا -أراه قال- أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود، قال: فذكرت ذلك لمهاجر بن مسمار، فقال: حدثنيه عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، عن النبي ﷺ مثله، إلا أنه قال: نظفوا أفنيتكم". انظر:

- الترمذي، محمد بن عيسى. **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٥، ص١١١، حديث رقم: ٢٧٩٩.

تُحْشَىٰ بها رؤوس الطلاب دون عظيم دراية أو اهتمام بآثار تلك المعارف، ومدىٰ ملاءمتها للدارس، ودورها في تكوين عقليته وبناء نفسيته،[1] حتىٰ إننا نَعجب لما يباهي به بعضهم، من موهوم مناقب الأئمة، من أنّ بعضهم قد جَشَّم بعض أبنائه استظهار عشرات الآلاف من النصوص المكذوبة، حتىٰ يعرف مكذوبَ الحديث، فلم يتنبهوا إلىٰ أن حفظ المكذوب والزائف من المعاني سيكون لـه أثره العقليّ السلبي علىٰ الدارس، وأن الأَولىٰ أن يبذلَ الطلابُ جهودهم في معرفة ما هو صحيح من الرواية وحفظه، وأن كل ما عدا الصحيح ليس صحيحاً، أما الزائف والمكذوب فلا نهاية لـه، وليس لزيادته حد، ويكفي في بابه إدراك غاياته ومآربه ومداخله ووسائله، مع استعراض نماذج منه، والتصدي لما يشيع منه، والرد عليه.

وأيضاً فإن من باب الغفلة عن الآثار النفسية للمعارف في فكر الأمة، والإغراق في الاهتمام بكمِّ المعارف، ما نعيشه حتىٰ اليوم في مجال التعليم الديني، إذ تُحشىٰ رؤوس الأطفال بالمعلومات التي لا تناسب عقليةَ الطفل ولا بناءَه النفسي، ولا يقف ضررها عند حشو رأس الطفل بما لا حاجة إليه،

(١) السنة النبوية مصدر غني ومهم، وهي نموذجٌ تطبيقيّ حيّ في واقع المجتمع الإنساني علىٰ عهد رسول الله ﷺ، ويثبت إمكانية تطبيقها في واقع الحياة البشرية، ولكن يجب أيضاً فهمها وفهم ظروف تطبيقاتها الزمانية والمكانية، حتىٰ ندرك حقيقة دلالاتها، ويجب الحرص علىٰ الصحيح منها فقط؛ فنُعمِل في تحقيقه كافة الأساليب العلمية من حيث نقد السند ونقد المتن، وأهمها اتساق معاني النصوص مع مبادئ القرآن الكريم ومفاهيمه ومقاصده. أما ما صحّت معانيه من النصوص التي لا يوثق بسندها فتكون من باب الآثار، ويستفاد من المعاني المشتملة عليها دون حاجة إلىٰ أن نضفي عليها أستار القداسة، لأن قبولها حينذاك يكون مستنداً إلىٰ فيها من المعاني، وفي ذلك الكفاية.

بل إنّ ذلك الحشو -وبهذا الأسلوب- يحرمه من أساليب التعليم والعرض التي تسهم في بنائه النفسي في مراحل نشأته ولين عوده، وبفوات هذه الفرصة التربوية الوجدانية -وهو في سن الطفولة المبكرة- تكون قد ضُيِّعَتْ فرصة بنائه النفسي السليم إلى غير رجعة.

ومن أمثلة ما يُحشى به عقل الطفل -وهو قليل الفائدة- ما يستظهره الطفل الصغير في المرحلة الابتدائية من مقادير الزكاة ونسبها في الإبل والبقر والغنم والزروع. فكثير من هؤلاء الأطفال لم يعد يرى الإبل، ولعله لن يملك في أي يوم من الأيام بقراً ولا زرعاً ولا غنماً، فلماذا يحشى رأسه بهذه التفاصيل الفقهية الجافة، وفي أمور لا تتعلق بواقع حياته. حتى إن ألزموا مثل هذا الطفل استظهار زكوات عروض التجارة الرائجة من أسهم وعقارات وصناعات، فكم من هؤلاء سيصبح عاملاً من عُمّال جمع الزكاة؟ وهل سينفعه حين يكبر ويمتلك الأسهم والعقارات تذكّرُ ما استظهر من النسب والمقادير؟ أم أنه سيطلب القول اليقين في ذلك عند أصحاب الاختصاص؟

ولا يقف الضرر عند هذا الحد من حشو رأس الطفل بما هو قليل الجدوى، وليس الأسوأ والأدهى أن مرحلة الطفولة هي المرحلة التي يتم فيها البناء النفسي والوجداني الذي تتطبّع به النفوس، وتنشأ معه العواطف، وتتشكّل به المفاهيم، ويتكوّن عليه الوجدان، ولذلك فإن الأولى في مراحل تنشئة الطفل، أن يتم تعليمه، في مجال الزكاة مثلاً، معاني التكافل والرحمة والتضحية والإيثار ومشاركة الضعيف والعاجز والمحتاج، على ألا يتم التعليم بمجرد التلقين، وإنما بكل الوسائل المقروءة والمسموعة والمرئية، وبالأساليب

التربويـة العملية الفعَّـالة، ومنها مثلاً مخالطة المحرومين والعاجزين والمعوقين، وخدمتهم وتقديم العون لهم، وإدراك معاني حاجتهم ومعاناتهم.

إنّ تفويت فرصة التكوين النفسي، والاستعاضة عنه بمثل هذا الحشو المعرفي الذي يصبح هدفاً في حد ذاته، دون تنبُّه إلى دور ما يقدم من معلومات، وعدم ملاحظة أثره السلبي في تكوين عقلية الصغار وتربية الناشئة، هو غفلة عن طبيعـة الطفولة ودور علاقـة المعرفي بالنفسي الوجداني في بناء الشخصية الإنسانية وتنميتها. وهذا واحد من موروثات التشوّه المنهجي الذي أصاب الفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية في عصورها اللاحقة.

التشوّه الثالث: تشوّه المفاهيم

وثالث التشوهات الخطيرة التي أصابت الفكر الإسلامي والعقل المسلم نتيجة عزلة العلماء، وما نجم عن ذلك من عجز فكري وجمود وتوظيف لخطاب الترهيب، لإخماد روح المحاكمة والنقد، وإرغام العامـة -بسبب العجز الفكري- على استسلام المتابعة والقبول، هو تشوّه المفاهيم؛ لأنه ما كان بالإمكان أن تُخمَد روح المحاكمة، وطلب الاقتناع، وأن تستسلمَ عامة الأمة للإملاءات، إلا بأن يمتد التشويه إلى كثير من المفاهيم الإسلامية الأساسية؛ بما يسهِّل المهمة، ويهيِّئ العقول والنفوس للخضوع والمتابعـة والاستسلام.

تشوّه مفهوم العبودية:

إنّ مفهوم "العبودية" يُعدُّ واحداً من المفاهيم الإسلامية الأساسية، وقد أدى تشويهه إلى تشويه كثير من المفاهيم الإسلامية الأخرى؛ لتتضافر المفاهيم

المشوَّهة وتتمكَّن من إحكامِ القهر النفسي، وإلغاءِ العقل الناقد، والحجرِ على التفكرِ والبحثِ والاستقصاءِ، والاكتفاءِ بالدعاوى ودغدغة الأحلام دون طلب النتائج وتقصي الآثار.

فالمسلمُ -كما أراد له الإسلام- عزيزٌ، وهو خليفةٌ مكرمٌ، وعبوديته لله هي مثار عزة وكرامـة، لأنها تعبير عن إرادة حرة في معرفة الحق واتّباع طريقه السوي القويم. والمسلمون المؤمنون هم عباد الله المخلصون، وليس صدفة أن الله سبحانه وتعالى خاطب الإنسان في القرآن الكريم بلفظ (عِبَاد) -بكسر العين وفتح الباء- ومنها (عُبَّاد) -بضم العين وتشديد الباء المفتوحة-. فقد جاء اللفظ من (التعبيد) وليس من (الاستعباد) خلافاً للفظ (عبيد).

إنّ هذا أشبه باستعمال كلمة "الذل" في القرآن الكريم، فذل المرء لأبويه -بحكم طبيعة علاقته بهما في سياق القرآن الكريم- مشتق من التذليل والتيسير، وليس من المذلة والمهانة، يقول الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾ [الإسراء: ٢٤].

أما أن يُخلَط بين خطاب الله للكافر المكابر الجاحد المحارب وخطابه للمؤمن المعبَّد المقبل عليه، وأن يصبحَ مفهومُ "عبوديته" مشتقاً من "الاستعباد"، ويصبحَ هذا المفهوم الأخير مشجباً لكل ألوان المهانة والتهديد والوعيد وقهر الضمير، وأداةَ تحقيرٍ، وسحقِ كرامـةٍ، وإلجامِ عقلٍ، وحاجزاً بين المخلوق والخالق، فهو خلطٌ لا أساس ولا داعي له، لأن الإنسان مخلوق محدود، والله هو الخالق المطلق، ولا مجال أصلاً للمقارنة بين المخلوق والخالق، ولا معنى لإثارة مثل هذه الدعاوى وتلك المقارنات في غير موضعها،

وإشهارها في مواجهة العقل المسلم المؤمن غير المكابر أو المعاند.

وبتشويه مفهوم "العبودية" وترويج هذه المقارنات أمكن التهوين من شأن العقل، وأصبحت تساؤلاته وتفحصاته موضع الاتهام، بالإنكار والعصيان، وقد أسهم هذا التشويه في قهر ضمير المسلم ومصادرة حقه في التفكير والنقد.

لقد أدىٰ هذا الموقف الاستعلائي من قِبَلِ طلبة العلوم الدينية، الذين قلّت بضاعتهم في العلوم الإنسانية وفي معرفة سبل تنـزيل معارف الوحي علىٰ واقع حياة الناس، إلىٰ انصراف كثير من المفكرين إلىٰ الفلسفات الدخيلة والموروثة من حضارات وثقافات الأمم الأخرىٰ التي دخلت الإسلام، دون منهج يهتدي به هؤلاء المفكرون في خوض غمارها، علماً بأنّ جُلَّ تلك الفلسفات والموروثات ترجع إلىٰ تهويمات ميتافيزيقية عارية عن الهداية الربانية، مما كرَّس صراعاً ومواجهةً موهومةً في الفكر الإسلامي بين "العقل والنقل"، وزاد من وهنِ عزم الأمـة، وضعفِ فكرِها، وتشتيتِ جهدِها، وانتهىٰ ذلك الصراع إلىٰ تشويه مفاهيم الإسلام لتغطيةِ عجزِ الفكرِ، وترويضِ العقل المفكر الناقد، والحطِّ من شأنه.

إنّ من المهم إدراكَ العلاقة بين المفاهيم الأساسية الإسلامية المتمثلة في مفهوم التوحيد، ومفهوم الإرادة، ومفهوم العبودية، ومفهوم الاستخلاف، ومفهوم التزكية، ومفهوم العمران.

فمفهوم التوحيد ليس قضية كهنوتية تقف عند أوصاف مجردة للذات الإلهية، ويتولىٰ فئات من البشر الحديث عنها بالنيابة، ولكنه مبدأ ديني،

ومفهوم إسلامي، له دلالته في حياة البشر، وفي فهم معنى هذه الحياة، وفهم الغاية منها.

مركزية مفهوم التوحيد ودلالاته الحياتية:

إن أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام تتمثل في أنه يشكل إطاراً لفهم الحياة والكون، ويرسي مبادئ العلاقات الإنسانية والأسس التي ترتكز عليها، وإن أي إخلال بهذا المبدأ أو المفهوم له آثاره الخطيرة في معنى الحياة الإسلامية، ونوعيتها، والغاية منها.

فمبدأ التوحيد يعني وحدانية الخالق، وهذه الحقيقة تعني وحدة خلق الكون، ووحدة الحياة والإنسان، وغائية الخلق والكون وتكامله، لا تعارضه، وتعني قصد الخير في الخلق، فلا مجال للاستعلاء أو الجور أو الاستبداد بين البشر، وبذلك فإن مبدأ التوحيد يحتم التزام مبادئ العدل والشورى والمساواة في الحقوق، وفي الكرامة الإنسانية، وفي حرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية.

ولبّ مفهوم العبوديّة هو الغائية الخيرية وحرية الإرادة والمسؤولية الإنسانية التي تتمثل في مبدأ التوحيد، وفي مبدأ الاستخلاف الذي ينبني عليه مفهوم التزكية ومفهوم الإعمار؛ إذ على الإنسان فرداً كان أم جماعة السعي إلى تحقيق غايات الخلق الخيِّرة، وفق ما أودع الله فيه من السنن، في النفس وفي الكون من حوله، على أساس هداية الوحي وسنن الفطرة التي أودعها الله في الكائنات.

وبهذا الفهم المتسق بين منظومة المبادئ والمفاهيم والرؤية الإسلامية الكلية يصبح مفهوم "العبودية" -كما عبّر عنه القرآن الكريم- مصدرَ اعتزازٍ

وقوة وثقة في ضمير المسلم، وفي بنائه النفسي والوجداني، وليس استعباداً للنفس الإنسانية، ولا مصدراً لأحاسيس المذلة والمهانة والخنوع والسلبية.

ومن المفيد في هذا المقام الاستعانة ببعض نصوص القرآن الكريم التي تصل القارئ الكريم بالمصدر الأساس لمبادئ الإسلام ومفاهيمه في التوحيد والعبودية والتزكية، وفي الاستخلاف والإصلاح والعمران، على النحو الآتي:

في التوحيد والعبودية والتزكية:

تجعل آيات القرآن الكريم مبدأ الوحدانية مبدأً أساسياً لقيام الكون وأساساً لصلاحه وحفظه، فالله هو الواحد وهو الخالق وإلا كان مصير الكون الفساد، وهو بذلك مصدر المعرفة بحال الكون الذي يهدي الخلائق والإنسان في مسالكه ودروبه، وله وحده حق التوجيه والطاعة في أمر الكون، وفي غايته وصلاح أمره، وعلى طريق الإيمان بالخالق والإحساس في الأداء يكون الصلاح، وتكون العزة وحسن المآل في الدارين.

يقول الله سبحانه وتعالى في تقرير مبدأ الوحدانية ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢].

ويجعل الله سبحانه وتعالى الإحسان وتعبيد النفس سبباً للصلاح ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والصلاح سبيل العزة في الدارين، يقول الله في كتابه العزيز: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨].

في الاستخلاف والإصلاح والإعمار:

ومن المفيد أيضاً أن نذكر بعض الآيات التي يفصل القرآن الكريم فيها سبيلَ الهدىٰ والصلاح، ومآلَ المستخلف المؤمن المتقن الصالح الذي يسعىٰ بالصلاح، كما يفصل فيها القرآن الكريم سبيل الجحود والضلال، ومآل الجاحد الضال. يقول الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]؛ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: ١٤]؛ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]؛ ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧]؛ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]؛ ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩]؛ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

وفي كتاب الله المزيد للمستزيد، كما أن في صحيح السنة -متناً وسنداً- كنوزاً من الهداية والتوجيه ما يزال الكثير منه ينتظر الجهود العلمية للإفادة منه

في تربية النشء، وإصلاح منهج فكره، وتنقية ثقافته، وحسن توجيهه.

التشوّه الرابع: تشوّه الخطاب

والتشوّه الخطير الرابع الذي أضر بالعقل والوجدان والنفسية المسلمة هو تشوّه الخطاب الإسلامي في عهد الفصام بين النخبة الفكرية الإسلامية والنخبة السياسية، وما أورثه هذا الفصام والعزلة من عجز فكري حوَّل فكر الممارسة والاجتهاد والتجديد والإبداع إلى فكرٍ مدرسي نصِّي مغلق، ينعدم -في عصوره المتأخرة- الاجتهادُ، ويقوم على التقليد، بحيث ينتهي إلى أن يصبح النص الضعيف، الذي قد لا يكون صحيحاً عند بعضهم، أولى من الرأي.

وتشوه الخطاب في تلك الظروف جاء نتيجةً حتميةً لفكر العزلة والفصام بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية. ولا علاقة لذلك -في عمومه- بالنوايا؛ إذ تحول الخطابُ من خطابِ فكرٍ ونظرٍ وتدبرٍ واقتناعٍ وقدرةٍ على الاجتهاد والتجديد واحتواء متغيرات الزمان والمكان، إلى خطابِ إرهابٍ وقهرٍ وقمعٍ، اعتمد -في كثير من الأحيان- على أكداسٍ من روايات آحاد أصحاب "الغفلة" و"المدلّسين" و"الحكواتية" وأصحاب الأغراض، وعلى سوء التأويل لنصوص خطاب قُصِدَ به الجاحدون والكفار والمستكبرون والمحاربون، فأضاف خطاب الترهيب الديني -وهو على هذه الصورة- ضِغْثاً على إِبّـالة في سحق روح العامة.

ولم تأتِ عبثاً مقالة أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -من مدرسة الرسالة- إلى مؤسس دولة المُـلْكِ العضوض، حينما وقف معاوية بن أبي سفيان على المنبر

يخطب حول موارد الأمة وبيت مال المسلمين الذي يطلق عليه اسم "مال الله" -مستعيناً في ذلك بأدوات قهر القدسية- فيقف لـه أبو ذر معارضاً ومصححاً ومذكّراً إياه بحق استخلاف الأمة في مواردها وثرواتها ومساءلة حكامها والعاملين عليها، بشأن حسن التصرف بها، وأدائها إلى أصحاب الحق فيها، قائلاً لـه: "بل مال المسلمين".

ليس عجيباً أن تصل الأمة إلى ما وصلت إليه من التمزق والسلبية والتخلف إذا كانت نظرةُ المسلم إلى المجتمع مغشاةً برداء مشاعر ضعف الفردية وانعدام الإحساس بأمن تكافل الجماعة، وكانت نظرتُه إلى العمل والسعي في الحياة سلبيةً مفرغةً من بعدها الحضاري والإعماري ومن مدلولها الروحي. وعندما تتشوه مفاهيم المسلم تصبح هذه المفاهيم أداة حطٍّ من قيمة عقله، ووسيلةَ هدمٍ لثقة الإنسان بنفسه.

وليس عجيباً أن تصل الأمـة إلى ما وصلت إليه من السلبية والتخلف وهي تعاني من إرهاب الصفوة الحاكمة، التي لا تعرف وسيلة للتعامل مع معارضي سياساتها وأصحاب الرأي المخالف لرأيها ومصالحها إلا سياسة الردع والقمع ونصب السوط والسيف والنطع، وفتح باب السجون للمعارضين، وما ذلك إلا بسبب عجزها عن احتواء المتغيرات، وافتقارها إلى القاعدة الفكرية التي تعينها على التطور والاحتواء وحسن الأداء وكبح جماد الفساد.

فإذا أضيف إلى الإرهاب السياسي وأغلاله وسجونه إرهابُ الخطاب الديني -المتمثل في جهنم ولظى الجحيم وأهوال القبر ويوم الحشر: الذي ينتظر المؤمنين عقاباً لهم على صغير خطاياهم وكبيرها، وهي عذابات

تترصدهم في كل حركة وسكنة يتململون بها في لباسهم ومأكلهم ومشربهم- أدركنا بعض أسباب خمود روح الأمة وغيبوبتها وسلبيتها وعجزها، وأسباب تفجرات أحداثها.

ومن الأمثلة المباشرة التي تقرب إلى ذهن القارئ بعض ما أصاب الخطاب الإسلامي من تشويه؛ ما شاهدته في مؤتمر إسلامي عالمي موضوعه عن الوحدة الإسلامية، وكانت المحاضرة عامة والقاعة غاصَّة بالحاضرين والمشاركين. ولأنّ الموضوع -فيما يبدو- لم يكن من معارف المتحدث وقدراته، فقد أخذت القاعة تتململ في متابعة الخطاب، وإذا بالمتحدث يتحول بالحديث -وبشكل مفتعل ومفاجئ، ودونما مناسبة واضحة- إلى الحديث عن الموت، وكيف سيلاقيه هؤلاء البشر، وما ينتظر المسيء منهم. فكانت أمامي صورة حية مذهلة معبرة عن سوء استخدام خطاب التذكير، وتحويله إلى خطاب إرهاب وتوعّد يلغي به المتحدث عقل المخاطب في محاولة يائسة منه للسيطرة على القاعة وعلى جمهور المستمعين، وشل قدرتهم على النظرة الناقدة والمحاكمة الواعية لما يعرضه عليهم من خطابه وفكره.

ومن الأمثلة الفجَّة لأسلوب استخدام الإرهاب الفكري وسوء استخدام رموز القداسة؛ ما لجأ إليه أحدهم في خطبة الجمعة بشأن أمر من أمور الهيئة، وهو موضوع إطلاق اللحية، إلا أن ذلك الخطيب لم يكن لديه الشيء الكثير الذي يمكن أن يوضح به للجمهور الحكمة من إطلاق اللحية، فآثر فرض وجهة نظره بإرهابهم؛ وذلك من خلال تحويل هذه القضية الهامشية من كونها قضية من قضايا الهيئة، مثلها في ذلك مثل شعر الرأس

وأزياء اللباس، إلى قضية عقيدة وإيمان، وكفر وعصيان، حيث أنه افتراض أن حليقي اللحى هم بالضرورة منكرون للسنة، والمنكر لأمر النبي ﷺ منكر للدين، ومنكر الدين كافر.

والإشكال في الأمر هنا هو الفكر والمنهج الذي ما زال يسمح حتى اليوم لهذا اللون من الخطاب ومن التعليم باستخدام النصوص وتوظيفها وتوظيف قدسيتها بشكل عشوائيّ، دون تحقيقٍ علمي ومنهجية شمولية تتكامل فيها مصادر المعرفة، ودون تربية وتعليم ينشئ عقولاً واعية ونفوساً ناضجة تدرك أطراف القضايا المطروحة في واقع الحياة والمجتمع.

ولأن التربية وتعليم العقيدة والدين والثقافة كانت تمارَس بمثل هذا النوع من الخطاب كان أثر التعليم الديني -في أغلب الأحيان- ضعيفاً وغيرَ إيجابي، ومن الممكن استقراء ذلك وملاحظته في ضعف استجابة عامة أبناء الأمة لما يلقى عليهم من مواعظ، كما يمكن تحسسه في عواطف الطفل نحو هذه المعارف وأساليب تلقينها وتعليمها.

يكفينا في هذا الموضع أن نشير إلى أنّ رسول الله ﷺ كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً، وأنه لم يضرب طفلاً قطّ، لأنه كان حفياً رفيقاً بالأطفال والناشئة.

ومن الأمثلة التي توضح ترفق الخطاب النبوي بالناشئة، وإدراكه مداخل نفوسهم، ما وقع بينه وبين الفتى اليافع الذي بلغ الحِلْمَ وأقضَّ مضجعه ما استيقظ في جسده من نوازغ الإنجاب والعشرة، وأتى إلى الرسول ﷺ يستأذنه في الزنا، فهدّأ الرسول من ثائرة من رأى في طلبه مجافاة لأدب خطاب رسول

الله ﷺ، وأمرهم ﷺ أن يفسحوا له، وأدنىٰ في رفق مجلسَ الفتىٰ منه. وما يهمنا تربوياً هنا أنه أخذ الفتىٰ بالرفق ولم يخاطبه خطاب تهديدٍ ووعيدٍ، ولا خطاب حرمةٍ وجحيم؛ لأن الفتىٰ لم يأتِ ليطلب معرفة حكم، ولكنه جاء يطلب حلاً ومخرجاً ممّا يعاني، ولذلك رأينا الرسول ﷺ -بفهمه لطبائع النفوس- قد بلغ أعماق نفس الفتىٰ وطبعه، وأقام منه علىٰ نفسه حارساً، ومن ضميره وازعاً وضابطاً، حين استثار كرامة نفسه ومروءة عرضه، فسأله إن كان يرضىٰ أن يُزنىٰ بأمه، ثم سأله إن كان يرضىٰ أن يُزنىٰ بأخته، ثم كرر عليه السؤال بشأن عمته وخالته، وكانت نفسه الأبية الكريمة ترفض دائماً تلك الخسة وذلك العار، فلفت رسول الله ﷺ نظر الفتىٰ إلىٰ الحقيقة التي ما كان يجب أن تغيب عن النفس الكريمة، وهي أنها لا يمكن أن ترضىٰ لغيرها ما لا ترضاه لذاتها، فقال له بكل الحب والتقدير لمعاناته النفسية: إنهن كلهن أمهات وأخوات وعمات وخالات، ودعا له فكان ذلك له قوةً نفسيةً ومانعاً ووجاءً.

إن من الضروري، إلىٰ جانب المنهجية الشمولية التحليلية المنضبطة، وتكامل مصادر المعرفة في التعليم الإسلامي، إيجاد آلية شورية منتخبة مؤهلة علمياً لكي تميز الآراء والاجتهادات، وتختار للأمة الرأي الذي يرىٰ فيه أهل الشورىٰ -علىٰ أساس من العلم بثوابت الشريعة ومقاصدها وأحوال الناس- ما فيه صلاح الأمة، ويستجيب لأحوال النفوس وطبائعها، وما يناسب الظروف والمتغيرات، فيكون بذلك خطاباً شورياً، يكسب بمؤهلاته الشرعية والسياسية اقتناعات الشعوب، ويضم صفوفها، ويفجر طاقاتها، ويُحكِمُ نسيجَ علاقات مجتمعاتها.

هذا اللون من المناهج المعرفية العلمية الإسلامية حين يتكامل مع الآلية الشورية فإن ذلك هو الذي يوفر المناخ الذي يفسح المجال للاجتهاد والتجديد؛ دون آثار سلبية تجعل من الاجتهادات وسيلة إلى تشتت الولاءات، وأداةً لمزيد من تمزق الصف وبلبلةِ النفوس، فيأتي التشريع، عقدياً وسياسياً، دليلَ حركة الأمة، فيتطوّر بتطوّر متغيّرات أحوالها، وعلى أساس من هدي ثوابت دينها وطبائع الخلق، وحاجات المجتمع وإمكاناته.

إنّ مسحة الإرهاب التي أصابت الخطاب الإسلامي لم يقتصر أثرها على خطاب البالغين، بل امتد أثرها إلى كل ألوان الخطاب، وبخاصة خطاب الطفل وتعليمه، فاصطبغ بمنهج الإملاء والاستظهار والمتابعة والقهر المادي والمعنوي، وتوظيف رموز القداسة لكبتِ روح النقد والفحص والتمييز، والخضوع الأعمى لمفهوم مقولة: "من علمني حرفاً صرتُ لـه عبداً."

التشوّه الخامس: عقلية الشعوذة والخرافة

والعجيب أن تفشو عقلية الخرافة والشعوذة في أمـةٍ القرآن الذي جاء يدعو إلى السعي والتفكُّر والنظر والتدبُّر والجدّ والإتقان والإحسان والاجتهاد والجهاد، وتتبع السنن، والأخذ في طلب الأمور بالأسباب.

إنّ من العجيب حقاً أن تنمو عقلية الخرافة والشعوذة في أمة رسولٍ لا تدع سيرة حياته وسنّته في تصريف شؤون أمته مجالاً لأي شك في جدية أخذه بالأسباب وتدبير الأمور، وسعيه بالجد والاجتهاد في كل ما تصدى له.

بل إنّ سيرة حياته وأداء رسالته كان فيها بشرياً منوطاً باتّباع الأسباب، وكان التعبير القرآني عن طبيعته البشرية على أبلغ ما يكون من الوضوح

والجلاء، فكان ينال من الأعداء وينال الأعداء منه ومن قومه، ويحظى بالنصر وتلحق به الهزيمة، وتعتوره أحوال الصحة والمرض، وينال منه الجوع والعطش، ويلحق برأيه -في غير أمر الرسالة- الصواب والخطأ.

إنه مبدع في التدبير والتخطيط وإدارة السلم والحرب: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ٥٠﴾ [الأنعام: ٥٠]. ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ ١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤].

كيف أمكن لحملة هذه الرسالة، وأتباع هذا النبي الكريم أن ينتهي كثيرٌ منهم إلى التواكل والخرافة وسيطرة الشعوذة على عقولهم وخواطرهم؟!

التوكُّل والتواكل:

كان خطاب القرآن في آلاف آياته موجهاً إلى القلب والعقل، يقيّم الحجة ويدعو إلى العمل، ويلقي المسؤولية، ويأمر أمة محمد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالجدّ والسعي والجهاد والأخذ بالأسباب: "اعقلها وتوكل."[1] ويؤكّد أنّ الله سبحانه وتعالى هو: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣﴾ [الأعلى: ٢ - ٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٩﴾ [الكهف: ٨٩]، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٦٨، حديث رقم: ٢٥١٧.

[النجم: ٣٩]. فبالعمل والسعي بأسباب الخلق وفطرة الطبائع، وبطلب السنن الإلهية الكونية، يتحقق التأهيل للحصول على الثمر، وليس في كل ذلك شيء من أوهام الخرافة والشعوذة، أو أي معنى يتعارض مع أيّ معنى من معاني التوكل والسعي واتّباع السنن الإلهية الكونية، التي لا بديل عنها في إدارة شؤون الحياة.

إنّ حقيقة التوكل والدعاء ونفعهما إنما تكون بعد أداء العمل وبذل الجهد والسعي والكدّ والاجتهاد، ويقصد بهما طلب عون الله بشأن كليات أمور الكون التي لا ندركها، ولا يسعها علمنا، ولا سيطرة لنا عليها، والله وحده يملك أمر علمها ومقاليد تصريفها. أمّا العجز والكسل والقعود عن طلب السنن والأسباب، ثم القعود والتلوي بلَوْكِ الدعوات، فذلك هو التواكل والانحراف عن طريق الإسلام وعن طريق السنن. فيستوي في ذلك من يلجأ إلى ممارسات الشعوذة وطرقِ أبواب الدجالين والمشعوذين؛ فذلك هو الأذى والزيغُ والضلالُ والوقوعُ في مزالق الكفر والشرك.

وقبل أن نتعرض لما بين أيدينا من قضايا تتعلق بأمر الخرافة والشعوذة؛ فإن من المهم أن نورد مثالاً يوضح العلاقة الإسلامية بين الجِدّ في السعي وطلب الأسباب، وبين الدعاء إلى الله والتوكل عليه في طلب الأمور والسعي لكسبها. وهذا المثل هو مثل الطالب الذي يُلقى عليه الدرس، وعليه أن يدرسه ويفهمه ويهضمه ويستذكره، وإلا فإنه بحسب سنة الأسباب لا نصيب له من النجاح. تلك سنة الله التي أودعها قوانين الطبائع، فلا بدّ من العمل والسعي وطلب الأسباب للحصول على الثمر. ولكن مجرد الاستذكار لا يكفي لتحقيق النجاح، ذلك لأن النجاح لا يرتبط بالأسباب المباشرة فقط؛ بل

يرتبط بما وراء ذلك من كليات أوسع وأعمّ. فقد يعوق الطالب حادث يمنعه من الذهاب إلى الامتحان أصلاً، وقد يذهب إلى قاعة الامتحان ولكنه يجد نفسه بعد أن سلم ورقة الإجابة أنه قد نسي الإجابة عن سؤال من الأسئلة، وقد يجيب عن كل الأسئلة لكنه يتبيّن أنه أخطأ في إجابته عن واحد منها. كل هذا أمور كلية لا يمكن للإنسان حساب مثلها مقدماً، وليس للإنسان فيها من وسيلة -إلى جانب العمل- إلا التوكّل على الله صاحب الأمر ومدبر الكون، ودعاؤه بطلب العناية والتوفيق. هذا هو منهج الإسلام في الحياة، وهو معنى التوكل الصحيح والدعاء المخلص.

الإرهاب والاستبداد والتخلف تربة الخرافة والشعوذة:

هذه التشوّهات التي ألـمّت بالعقل المسلم وفّرت التربة الصالحة لفكر الخرافة والشعوذة، حين وقعت جماهير الأمة فريسة مظالم الاستبداد والإرهاب السياسي والترهيب الفكري، فاتّسمت بالخنوع والسلبية، والانصراف تدريجياً عن خوض غمار البحث والتنقيب والبناء والإبداع؛ لتغرقَ في غمار الفقر والخرافة والجهل، وهنا يفقد الإنسان ثقته بنفسه، ويفقد زمام المبادرة في شؤون حياته، ويفقد التحكم في مقدرات عالمه.

إنّ من الطبيعي أن يجنح مثل هذا الإنسان، في غمار عجزه وآلام معاناته، صوب الخرافة والشعوذة، وما يروج لها من التأويلات والقصص والأساطير، فيعيرها أذناً صاغية، وتَروج لديه بضاعتها، ويستنجد في جهالاته بأوهامها الرخيصة المخدرة ضد ما يحيق به من الآفات التي لا يعرف، بسبب جهله، اسبابها، ولا يملك، بسبب عجزه، القدرةَ على شيء لدفعها، لأنّ ثقافته ونفسيته

وقدراته قد أصابها الكثير من العطب، وحرمها الكثير من قوة العقلية السننية، ومن نفسية الإبداع والمبادرة، ومن القدرة على البحث والتقصي والتنقيب؛ التي لم تكن أمـة من أمم الأرض أولى بها من أمـة كتاب القرآن العظيم.

الكارثة في توظيف الدين والقداسة لخدمة الخرافة والشعوذة:

وحتى يصبح المرض آفة، والحمى طاعوناً، والدمَّل سرطاناً، ويصبح التشوه عاهة، وحتى تمتد الجذور ويتوطن الداء ويستعصي العلاج أمام كل التحديات والنوازل والكوارث التي تحل بالأمة، فلا تعود تنبت علماً، ولا تثمر إبداعاً، ولا تتقن أداءً، فقد تم كلّ ذلك عن طريق إضفاء القداسة على كثير من الخرافات والشعوذات، وترويج الكثير من موضوع الآثار والأساطير والإسرائيليات، ويسوء استغلال بضع إشارات قرآنية تاريخيّة.

حين اكتمل نضج الإنسانية ومنهج فكرها ودليل حياتها، وأنزلت رسالة القرآن ونور هدايته للعقل الإنساني، في علاقته بالكون، وما أودعه الله فيه من الأسباب والأسرار، تغيرت تلك الأحوال، فتغير معها موقع الإنسان، ليصبح بعقله وعلمه هو الذي يتحكم وحده في عالمه، وليس لأحد من عوالم الكون الأخرى سلطان عليه يحاول من خارجه أن يتسلل إليه، أو يتحكم فيه، ولذلك ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٩]. بل إن القرآن الكريم قد وضّح أنّ ما كان عليه الكهنة والمشعوذون في تلك الحقب إنما كان، على وجه الحقيقة، وهماً وخداعاً للنفوس والأبصار: ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ۝١١٦﴾ [الأعراف: ١١٦]. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦﴾ [طه: ٦٦]. ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ

وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩]، وأنّه ما كانت لهم قدرة على النفع أو الضرر إلا أن يشاء الله، وتأثيرهم الضار إنّما هو بسبب ما يلجأون إليه حتى اليوم من المكائد والحيل.

بل إن رسول الله ﷺ، وقد وُجِّهت رسالته إلى العالمين، ومنهم عالم الجان والخفاء من العوالم الأخرى في الكون، لم يَرَ الجنّ هو نفسه ولكنه أُخبر باستماعهم له، فلم يتصل عالمه بعالمهم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴿١﴾﴾ [الجن: ١]. كما أنّ إبليس وإن كان -كما أخبر الله في القرآن، وكما نحسّه جميعاً في أنفسنا- يستطيع الوسوسة للإنسان، إلا أنّه لا قدرة له عليه، ولا تحكم له فيه، إلا أن يصغي إلى وسوسته وينصاع إليه خياراً وطواعية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل: ٩٩].(١)

(١) من المغالطات التي يقع فيها بعض الدارسين ويلج منها المشعوذون؛ قضية المسّ. فالقرآن الكريم يتحدث عن "مس الشيطان" بعينه لا عمّا يتحدثون عنه من مسٍّ الجن في وصف المرابين ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ومن الواضح أنّ هذه صورة بلاغية تصف ضلال المرابي والعاصي لأمر الله بتخبطه في ضلاله وزيغه عن الحق، ولا علاقة لذلك بالأمراض العقلية والنفسية، فالمرابون في الدنيا وإن كانوا أهل زيغ وضلال إلا أنّهم عقلاء ومسؤولون، ولا علاقة لتخبطهم العقدي بالأمراض الجسدية العقلية والعصبية والنفسية، وهذا أيضاً واضح في تشبيه ثمر جهنم في ضرره وبشاعته وسوء منظره ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات: ٦٥]؛ فالمشبه به يكون عادة معروفاً لدى السامع. أمّا رؤوس الشياطين فممّا لا يعرفه أحد، وإنّما أريد به ما وقر في النفوس عن الشيطان من القبح والشر والأذى. أمّا من يدعي أنّ أيّ مرض من الأمراض هو "مسٌّ جانٍّ" فهو دجل وشعوذة لا دليل عليه ولا برهان.

لقد أراد الله بالإنسان في عصر الرسالة الخاتمة خيراً لا شراً، فخَلَّصَ لـه عالَه -بإذنه- من كل سلطة إلا سلطته وسلطة استخلافه، وجعله خالصاً لـه، يسخِّره ويعمِّره ويجلّي فيه إرادته ويمحِّص به معدنـه، بعمله وسعيه وحده، فما عادت هناك عوالم ولا أشباح تسيطر على عالمه، أو تشلّ، أو تنفي إرادته، وتدمر دوره، وتنفي مسؤوليته، أو تعبث به وتتركه عاجزاً مسلوب الإرادة. فالإرادة إرادته، والفعل فعله، والمسـؤولية مسؤوليته وحده: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]؛ ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ۝١٦٤﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١]؛ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

ولكنّ هذه الرؤيـة القرآنية، رؤية العلم والتفكر والتدبر، ودليل السعي والعمل والجهاد والاجتهاد الذي يزن بميزان مثقال الذرة، اضطربت بعد أن عكر صفوَها فكرُ القهر والتخلف وعقل التقليد والانحطاط، فأخذت تعلِّق على مِشجب معدودِ الإشاراتِ القرآنية، والأحاديث النبوية الصحيحة، وصحيح تأويلها ومغلوطه -أكداساً من النصوص الآحادية الضعيفة والموضوعة- بفعلِ غفلةِ "الصالحين"، ودسِّ المشعوذين، وأصحاب الأغراض، ورواة الأساطير والإسرائيليات، لتعطي المشروعية لفكر الخرافة والشعوذة، وتُخدِّر الحس الإسلامي القرآني، وتسلم بعدها الأمة إلى مزيد من التخلف والجهل على أيدي المشعوذين الأفَّاقين.

لقد كان أولىٰ لمن خاضوا في الحديث عن عوالم الغيبِ الجَانّةِ الخافيةِ عن حواس البشر، والتي لا مجال لحواس الإنسان وعقله الإحاطة بها، أن يقفوا عند محاكمةِ صحيح أخبارها من فاسدها، وتمييزه، ويلتزموا حدودَ الإشارات القرآنية ومقاصدها كما جاءت في السياق القرآني، فاكتفوا بذلك القدر وتلك المقاصد، ويلتزموا مناهج النظر الصحيح فيها، وهي التي تعتمد القواعد المنهجية الكلية ومقاصد الشريعة، وآثار الزمان والمكان، وما تواجهه الأمة من حقيقة التحديات وما تعاني من المشكلات.

ومن أهم القواعد المنهجية التي يجب -في رأينا- التزامها في الأمور الغيبية؛ قاعدة التواتر الذي يستحيل معه الكذب، لأنّ شؤون الغيب ممّا لا يمكن محاكمته إلىٰ العقل والخبرة والتجربة من شؤون الحس والعلاقات الإنسانية، ولذلك فإن من الضروري أخذها من المصادر المتواترة. ولو التزم الدارسون المقاصد والمبادئ في فهم المتون ونقدها، والتزموا دقة التحرير في اعتماد النص ونقد سنده، لجنَّبوا الأمة مفازة عظيمة وكبوة قاتلة، وجنبوها قهر قداسة كثير من المكذوبات والمحرفات والمزيدات والإسرائيليات، ومن سوء التأويل وقسره الذي ساعد علىٰ سَوق الأمة، في ظل العجز والترهيب والاستبداد، إلىٰ فكر الخرافة وإلغاء العقل، وأسلم الأمة إلىٰ دعاوىٰ الدحالين المشعوذين، ومكن لها في ركب العجز والتخلف والعجز والهوان.

الدعاء والرقية علاقة وجدانية، لا مهنة وتألٍّ علىٰ الله:

كذلك فإن من الأمور المؤسفة أن يكون الدعاء ورقىٰ القرآن الكريم ممّا يفتح به بعض الناس باب الخرافة واحتراف الشعوذة، حين يتحول الدعاء إلىٰ

مهنة وحرفة ووسيلة إلى المال والجاه يخص بها بعض الناس أنفسهم، أو يخصهم الناسُ -عملياً، بوعي أو بدون وعي- بأمر القدرة الإلهية والوساطة بين الله وعباده في شفاء الناس وقضاء حوائجهم، والناس بذلك كأنهم قد حكموا لهم بصلاحهم وقربهم منه سبحانه وتعالى، وخصّوهم باللجوء إليهم لقضاء حاجاتهم، وهم بذلك يتحكمون عملياً -مهما قالوا غير ذلك- في رحمة الله ويخضعونها لمقامهم وسلطانهم، ليصبح ذلك حرفة لهم ومقاماً وسلطاناً بين الناس، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

لا شك في أنّ الله سبحانه وتعالى يسمع دعاء عباده، وهو يعلم سرائرهم ويكافئهم بحكمته على ذلك بما يستحقون. والمكروبون هم أولى الناس بالإنابة إليه والتوجه إليه بالدعاء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠]. أمّا سؤال الوالدين الدعاء، أو من يَتَوَسَّمُ فيه الناسُ الصلاحَ من أهليهم وأهل جوارهم، فذلك أمر مستحبٌ، إذا تم بتلقائية وبروح التواصل والبر والمودة، لا بروح الدجل وادعاء مكانة هي بمنزلة التحكم في رحمة الله.

ومن المهم ألا يكون طلب الدعاء ممن يُتوسَّم فيه الصلاح أداةً لإعفاء الذات من التوبة، ومن العزم على الصلاح والتقرب إلى الله حتى يكون المرء أهلاً للاستجابة. فطلب الدعاء من الصالح يجب أن يكون مصحوباً ببذل الجهد لإصلاح نفوسنا، فيكون دعاؤه وسيلةً إلى مزيدٍ من التقرب إلى الله،

وليس وسيلةً للتهاون وغيبة الوعي.

وهكذا فإن طلب المكروبين الدعاء من آبائهم وأمهاتهم، وممن يعرف المرء من أصحاب الإخلاص والصلاح وعون أصحاب الحاجات، لا يحقق الهدف إلا إذا تم بتلقائية وفي صلة وجدانية، وفي النوازل وفي عظيم البلايا يمتدّ ليشمل عامة الناس، فإن ذلك من دواعي الاستجابة بإذن الله، ويقوي روابط الحب والتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع، ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

مواصلة الجهود لتحرير النصوص والمفاهيم والتفاسير وتنقيتها:

إن ما يعاني منه منهج الفكر الغالب في الأمة من الجزئية اللغوية والنصية الحرفية التقليدية المستندة إلى رؤى وظروف تاريخية لا تتعلق بالسنن، ولا بالواقع الذي نعيشه، ولا بالتحديات والمشاكل التي نواجهها اليوم؛ ما يجعل فكر الأمة اليوم كالأحجية التي تمزق صورة معقدة إلى أجزاء كثيرة متساوي، ويكون كالورق الذي تمزقه آلات تقطيع الورق، ويجعل من الصعب على من لا دراية له بكلية المطلوب أن يصنع من تلك المزق الصورةَ الصحيحةَ الأصلية، فينتهي جهل الناس بحلِّ الأحجية إلى صور مشوهة عديدة، كل صورة منها تختلف عن الأخرى، وكل نسخة تمثل مزقاً غير متناسقة؛ بحيث يصعب أن يملك واحد منهم صورةً تمثل الحقيقة كاملة، وهذا تماماً ما يحدث اليوم. ففي كلّ حكمٍ وفي كلّ أمرٍ ترتفع أصواتٌ لا تُعَدُّ، وبرؤى وأسانيد متغايرة متنافرة، لا يعلم الناس في أيٍّ منها الحقيقة والصواب، ولدى كلٍّ منهم قول يسنده نص، ودحضه عند الآخرين قول آخر ونص آخر.

إن المنهجية السليمة لا تسمح للأحداث والتطبيقات والملابسات الزمانية والمكانية أن تطغى على المقاصد والثوابت والكليات، وأن تضلل الجهود لمواجهة المشكلات والتحديات، فلا تجد التفسيرات والمفاهيم الخاطئة والنصوص المحرفة والموضوعة، والقصص والأساطير والإسرائيليات، طريقَها إلى فكر الأمة وثوابتها وكلياتها وثقافتها وممارسات جمهورها.

ترويج فكر الخرافة والشعوذة وكتبها جريمة دينية:

من الجرم في حق أمة القرآن واستخلاف الإنسان دينياً وفكرياً واجتماعياً أن يروج -في هذا العصر وأمام ما تواجهه الأمة من تحديات- أي شيء يعوق روح العلم والعمل والجدّ والاجتهاد والأخذ بالأسباب وحمل المسؤوليات.

ومن الجريمة نشر بعض كتب العصور السالفة التي تخصّ ظروفاً وتحديات وسقوفاً معرفية سالفة، وكثير منها هو من باب أدبيات الخرافة والتخلف والانحطاط، ولكنّها تُلصق زوراً بالدين والتراث. فنشر مثل هذه الكتب دون فحصها وتنقيتها، وترويج مادتها باسم الدين بين الناس والناشئة، هو من باب الجريمة والجناية على عامة أبناء الأمة.

إنّ أقصى ما يوليه العقلُ المسلم السليم مثل هذه الكتب هو أن تصبح من قِبَل أصحاب الاختصاص مادة بحث ودراسة وتأمل وفهم للظروف التي كتبت فيها ودوافعها، لا مادة يروّج لها بين عامة أبناء الأمة، فإنّ ذلك شعوذةٌ ودجل باسم التراث وباسم الدين، حتى إن نُسب بعضها، إلى بعض من نجلّ

من أهل العلم الذين أخطأوا -إن صحتْ نسبتها حقاً إليهم-[1] فهمَ بعض هذه القضايا، وكم من ظاهرة لم تكن مفهومة في الماضي؛ أمكن بالبحث العلمي والدرس فهمها وحل ألغازها بما حققه العلم من تقدم في الوقت الحاضر، كما أنّ الكثير من هذه الدعاوى قد اتضح كذبها وادّعاؤها.

إن التعلّق بالخرافات والأوهام وقصص الخوارق والأحاجي والألغاز وكاذبِ المعجزات، ونشرها، والخلط بين ماضي الإنسانية ودور الخوارق فيه، وحاضر الإنسانية القائم على هداية الوحي ومنهج العلم والعقل، كل ذلك لا يخدم إلا أعداء الأمة، ولا ثمرة له إلا تدمير روح العلم والقدرة فيها، واستدامة ضعف الأمة وعجزها.

يجب حماية الأمة والناشئة، وتحصينهم بالعقيدة الصحيحة وبالعلم الصحيح، من مثل هذا الفكر وهذه المواد الضارة، ووضعها -في كل ما يتعلق بالتربية والتعليم والإعلام- بعيداً عن أعين الناشئة والعامة وأسماعهم وأدبياتهم، وأن يتمَّ حفظ المواد السامة والضارة لدى أصحاب الاختصاص بعيداً عن أيدي الصغار والجهال.

---

(١) نحن نعلم أنّ بعض أهل العلم السابقين تُنسَب إليهم مئات من الكتب التي يستحيل على الواحد أن يكتبها في حياته، وتفسير ذلك أنّ بعض الناس ينسبون كتبهم إلى غيرهم من الأجلاء طلباً لترويج أفكارهم؛ ممّا يجعلنا نرفض كل دعوى بنسبة كتاب أو آخر إلى بعض أهل العلم إذا كان ذلك الكتاب ليس على شاكلة فكرهم ومقاصدهم.

تتقدم الأمم بالعلم والمعرفة لا بالخرافة والشعوذة:

لم تتقدم الأمم بفعل السحرة وجهود المشعوذين، ولا على أيدي أعوانهم الموهومين من مردة الجان والشياطين، وإنّما بما وهب الله الإنسان من العقل والمعرفة والقدرة والجهد، وفقاً لما قدر في الكائنات من الطبائع والإمكانات.

إنّ علينا أن ندرك طبيعة الظروف والعصور والمراحل الإيجابية والسلبية التي مرت بها الأمـة الإسلامية، وطبيعة عقليتها وإمكانات خطاباتها في الماضي، فكثير من ذلك الخطاب -حتى الإيجابي منه- إنّما ناسب زمانه ومكانه وثقافة عصره وإمكاناته. ولذلك فإنّ ترديده في ظروف عالم اليوم وتحدياته يلقى على عواهنه، وإن تَلقِّيه كما هو -دون فهم لخصوصيات- على أنّه من مكنون التراث الذي نسعى لتلبُّسه على حاله وهيئته، من أشد أنواع الجهل والغفلة، ولا يأتي من ذلك الخطاب إلا أشد الضرر، وليس عبثاً أن يقال إنّ من الخطأ "رواية" كل ما يقال، لأنّ "لكل مقام مقال"، وبعض ذلك المقال الذي تقبّله كثير من أبناء الأسلاف من الخطأ روايته وإشاعته وتداوله وإضفاء قدسية التراث عليه.

إنّ على مفكري الأمـة وعلمائها ألا يقعوا في حبائل المنهجيات الجزئية والحرفية؛ حتى يمكنهم أداء واجبهم في استنقاذ الأمـة، وأن ينطلقوا في إصلاح هذه التشوهات من منطلقات كلّيات الشريعة ومقاصدها، مسلحين بالمعارف والمباحث العلمية، التاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والتربويـة، وبأسـلوب منهجي شمولي تحليلي منضبط systematic يجلو لهم طبيعة الرؤية الإسلامية الصحيحة وسبل تحقيقها في العالم المعاصر، كما يمكنهم من إدراك

مواضع الأحداث والنصوص في عهد الرسالة وما تلاه من العصور، وإدراك بُعْدَي الزمان والمكان، وأثر ذلك في فهم دلالة ما صح من الأحداث والنصوص، بحيث تكون مدققةً ومميزةً بأدق وأسلم الموازين المنهجية، لمعرفة ما خالط تفصيلاتها من خصوصيات المخاطبين بها -زماناً ومكاناً- في ثقافتهم وإدراكهم ونسيج علاقاتهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية.

فكثيراً ما يضل الفهم حينما يُنْظَرُ إلى النصوص والأحداث على أنّها في فراغ، وكأنّ الراعي والمعلم والقائد، حين يتحدث إلى قومه ويتعامل مع واقعهم، إنّما يتعامل مع كل البشرية في كل زمان ومكان، وليس إلى أقوام وفئات وجماعات وأفراد بعينهم، تتفاوت قدراتهم ومداركهم وثقافاتهم وأمزجتهم وعاداتهم وتقاليدهم ومداخل نفوسهم، فتختلف ألوان الخطاب حتى في المكان والزمان الواحد، وللهدف الواحد، من فئة إلى أخرى، ومن وجهٍ إلى آخر، بحسب حال المخاطب، وبحسب الأولويات والمصالح والضرورات والقدرات التي يأخذها المتحدث والموجه في الحسبان، فما بالنا إذا تباعدت -على مدى القرون- أحوال الزمان والمكان.

وعي الآباء أساس البناء:

لعل من المفيد أن نورد هنا مثالاً من الأمثلة على تفاوت الخطاب، بسبب طبيعة الثقافة والإمكانات، وطبيعة المخاطب، مما يوضح أهمية أسلوب فهم كثير من خصوصيات النصوص التي لا يفهم معها أتباع المنهجيات الجزئية والحرفية التقليدية سببَ عدم تجاوب الناس مع خطابهم، وهم يتلمسون مخرجاً يوفق بين ولاءاتهم النفسية وما يلقى إليهم من جزاف القول والتوجيهات.

فالأمهات في مكة المكرمة -وفي ظني في كثير من البلاد الأخرى على عهد طفولة أجيالنا وما قبله من الأجيال- كانوا يتبادلون العديد من المفاهيم والأساليب التراثية التي اندثر كثير منها بتغير الظروف والإمكانات والثقافة. ومن ذلك أنهم كانوا يحرصون على تلقين أطفالهم أنّ في كل ثمرة رمانة "حبة من الجنة"، والرمان -كما يعلم القارئ- مما يجود نوعه في بلاد الطائف من جبال الحجاز، إلا أنه يترك بقعاً حمراء على الملابس تصعب إزالتها، ولأن من الصعب حفظ حباته دون أن تنتثر من يد الآكل؛ كانت فكرةُ أن في كل رمانة حبة من الجنة فكرة خرافية ذكية تجعل الطفل يحرص على البحث الدائب عما يسقط منها؛ كما تسهّل مهمة الأم في حفظ ملابس أبنائها وأثاث منزلها من التلوث. فقط عندما نتجاوز مرحلة الطفولة نستطيع أن نتبيّن أن "حبة الجنة" لم تكن إلا خرافة.

ولكنّ حرص الأم على حماية طفلها، واللجوء -بجهل- إلى الخرافة لتحقيق عاجل غرضها قد يكون له أحياناً أسوأ الأثر.

ومن ذلك ما كانت تلجأ إليه كثير من الأمهات، الجاهلات بنفسية الأطفال، وبمسميات تختلف بين بلدٍ وآخر، من تخويف الطفل من الانطلاق بعيداً عن عين رعايتها ورقابتها خوفاً عليه من الغوائل، خاصة في عتمة الليالي، وفي بيئات تكاد تنعدم فيها الإضاءة أو الحركة، حيث ينطلق في الظلمة "الهمّل" و"الحرامية" و"طلاب الرذيلة" و"قطاع الطرق" من شياطين البشر، فكانت الأمهات يُخوّفْنَ أبناءهن الصغار بأن هناك كائناً جنياً يدعى "الدجيرة" يخرج ليلاً في زيّ النساء، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بينه وبين المرأة الحقيقية إلا بأن رِجْلَه على هيئة حافر حمار. ونستطيع أن نتصور حال الطفل لو

اضطر للخروج من المنزل في الليل ولقي امرأة مقبلة عليه في الظلام في أحد هذه "الأزقة".

هذه الخرافة المرعبة، وما ترسخه في خيال الطفل الصغير، كفيلةٌ بأن تمنع الطفل من أن يفكر في تخطي عتبة الدار في ظلام الليل، وليت الأمر يقف عند هذا الحد، ولكن قد يتعداه إلى أضرار نفسية قد لا تزول ممّا تولّده عند الطفل من مشاعر الخوف من الوحدة ومن الظلام، وهذا النوع من التربية يشكل عاملاً من عوامل تمكين صفات الخوف والجبن في نفس الصغير حين يشب ويصبح في عداد البالغين. وعندها علينا أن ننتظر الأجنبي كي يجوب قفارنا وجبالنا ووديااننا وكهوفنا، فيرسم لنا خرائطها ومواقعها ومواطن الثروة فيه، ويكون أعلم بها منا.

وكم هو مؤسف أن كثيراً من الوعاظ والكتاب ينشر على نحو مباشر أو غير مباشر نصوصاً لها آثار سلبية، خصوصاً حينما تكون نصوصاً دينية، وقد تكون غير صحيحة أو محرفة، أو لم تفهم ظروفها ولا دلالاتها، أو أنه قد أسيء فهمها وتأويلها.

مزيداً من الجهد في تحرير المفاهيم الأساسية:

لقد بدأ الأستاذ الإمام محمد عبده -بعد أن تعرض للتحدي العلمي الأوروبي، وتابعه عدد من العلماء والمفكرين- أمرَ التصدي في العصر الحديث لتنقية التراث من آثار الخرافة والشعوذة في العقل المسلم؛ وذلك بإعادة النظر في فهم النصوص وأدبيات التراث في هذا المجال، وأعاد عرض هذه الإشكالات من زاوية معطيات العصر ومفاهيمه ومعارفه وإمكاناته وتحدياته؛

وذلك بالدعوة إلى إعادة النظر في نصوص التراث وأساليب فهمها ونقدها وتأويلها، وإعادة صياغة الخطاب الإسلامي تبعاً لما طرأ في زمانه من المتغيرات والحاجات والإمكانات.

وعلى الرغم من جهود هؤلاء الرواد، التي مثلت بداية مهمة، فما زالت هناك حاجة ماسة إلى مزيد من الجهد، الذي يجب أن يكون منهجياً لإرساء الأسس والمفاهيم العامة الضرورية المطلوبة لتحرير العقل المسلم من فكر الخرافة والشعوذة، وعلى أسس متينة تليق بأمة "العلق" و"القلم" و"الحديد"، وفي عصر تجلية قدرة علم السنن التي لا تغيير لها ولا تبديل؛ فبالمنهجية العلمية السليمة تتوحد الرؤية ويتسع القدر المشترك، وبدون المنهج العلمي السليم تمتنع على الأمة الرؤية الصحيحة المشتركة، وتتلاشى القدرة على تحرير الأفكار والثقافة والمواقف بشكل موضوعي مقنع فعال.

ولذلك، فإنه من غير المجدي إدارة الحوار في أمر جوهري هام مثل مقاومة فكر الخرافة والشعوذة وتمكين العقلية العلمية؛ على أساس من المنهجية الجزئية أو الحرفية اللغوية، لأنه لن يكون هناك ضابط منهجي لحوارات الفكر وخلافات الرأي، ولا بد أن ينتهي الحوار إلى متاهاتٍ من القضايا الجزئية التي لا نهاية لها، ولا تقود إلا إلى الفوضى الفكرية، وإلى حِدَّة الخلافات الوهمية، وتطرف المواقف الزائفة، والهروب من النظر العلمي إلى الحكم على النوايا، وتراشق الاتهامات، وتوليد العداوات التي تمزق الصفوف وتضعف العزم وتدمر الحس الجماعي، وتقيم حواجز العزلة وعدم الاكتراث بين جمهور الأمة وصفوتها المثقفة.

إنني أدعو علماءنا ومفكرينا للاهتمام بالقضية المنهجية، والعمل على تنقية الثقافة مما أصابها من تشوهات وتلوث، وبخاصة فكرُ الخرافة والشعوذة والدجل، وإلى دراسة النصوص والتراث دراسة منهجية، لتحقيقها متناً وسنداً وشكلاً وموضوعاً، والاعتماد في ذلك على أسس مكينة من المقاصد والمنطلقات والتحديات؛ بحيث لا تترك مجالاً لأن تصبح الكلماتُ والإشاراتُ النصِّيةُ مشاجبَ ومداخل للسلبية والتواكل والخرافة.

ومن المهم في ختام هذه العجالة أن أضع أمام القارئ الكريم إطار المعالجة المطلوبة، والتذكير بمرتكزاتها الأساسية، ومرجعيات تلك المعالجة، ومعايير قياس نتائجها.

وهذه المرتكزات يجب أن تحكم كليات أي بحث في هذا المجال وتضبط نتائجه، وهي مرتكزات يحكمها جوهر رسالة الإسلام ومبادئه الأساسية: مبادئ التوحيد، والاستخلاف، والغائية الخيرة للحياة الإنسانية، ومبدأ المسؤولية الإنسانية على أساس العمل والسعي في الأرض وَفْقَ سنن السببية الكونية.

وأهم هذه المرتكزات التي جاء بها الإسلام وكليات الكتاب العزيز ونصوصه هي:

- إن القضية في أساسها ليست قضية وجود عوالم أخرى في الكون أو عدمها، وما يعنينا هنا هو علاقة هذه العوالم والكائنات -أيّاً كانت طبيعتها- بعالم الإنسان وتأثيرها فيه. ومن الواضح أن مبدأ المسؤولية،

ومبدأ الأخذ بالأسباب، لا يدعان مجالاً لهذه العوالم الأخرى لأن تتحكم بالإنسان أو بعالمه. كما أنه يجب أن نفرق بين مختلف عوالم الغيب والخفاء، فمنها ما لا نعلم من أمره شيئاً، ومنها ما هو من الكائنات الدقيقة التي تخفى عن أعين الناس، وكانت -وما تزال- تسبب للإنسان الكثير من الأمراض والكوارث، ومنها ما ينفع الناس، وقد كشف العلم اليوم أسرارها وآثارها.

- إن الشيطان من عوالم الغيب، وذريته -ومن هم من جنسه من الجان- ليس لهم على الإنسان أي سلطان.

- إن أعمال السحر والشعوذة هي من باب الحيل والأوهام.

- إن الإنسانية مع بدء الرسالة المحمدية العالمية دخلت دوراً جديداً من النضج والأداء، أصبح فيها الإنسان كامل الرؤية وموضع المسؤولية، وانتقل من عالم الطفولة الإنسانية وعالم الجهل وعالم الخوارق، عالم الكتاب والعقل والعلم والمعرفة والعمل وطلب الأسباب. لقد كشف بطاقة العقل والعلم -وما زال يكشف- أسرار عوالم الخفاء من الكائنات الدقيقة، وأزال بذلك كثيراً من أسباب عجزه وخوفه ورعبه، كما أزال العلم بكشوفاته العلمية كثيراً من وسائل الدجالين والمشعوذين ومدَّعي السحر، وذلك بالكشف عن كثير من القوانين الفيزيائية وخصائص المواد، وعن كثير من أسرار النفس الإنسانية، وعللها، وما يؤثر فيها.

- لو أن المشعوذين والدجالين ومدعي السحر كانوا على شيء من الحقيقة لأغنوا أنفسهم ونفعوها، ولكنهم يحتالون للاستيلاء على أموال المستغفَلين، والسيطرة عليهم، وإنزال الأضرار المادية والمعنوية بهم.

- إن مبادئ التكريم والاستخلاف والتسخير والمسؤولية تعني ضرورة تحكّم الإنسان بعالمه وحمل مسؤولية أفعاله في تسيير عالمه، وليس تحكّم عوالم الغيب والخفاء به.

- إن المحصلة النهائية التي ينتهي إليها كل بحث وفهم وتأويل لابد من أن تصل إلى الحقيقة القاطعة بأن ما يفعله المشعوذون والدجالون ومدعو السحر لا يؤدي إلا إلى ما يضر بالإنسان ولا ينفعه، وإن تتبعها والوقوع في شِراكها غفلةٌ وزيغٌ، وإن مزاولةَ دجلِها شرٌّ وكفرٌ.

التشوّه السادس: العرقية "دعوها فإنها منتنة"

نشـأتُ في مكة المكرمة، وفي أجوائها فتحتُ عيني على كل ألوان الناس وأجناسهم وسحناتهم، في الدار، وفي الجوار، وفي ساحات الحرم ورواقات بيت الله، هم مني وأنا منهم: إنسانيةً، ووطناً، وديناً، لا يفرق بين واحد وآخر إلا ما يحمله بين جوانحه من صفات وخصال.

لقد قرأ هذا الطفل في المنزل، وفي المدرسة، وفي بيت الله العتيق، كتابَ الله عزَّ وجلَّ، ودرس جملة من أمهات نصوص سنّة نبيه ﷺ، وجال بقلبه النابض وعقله الغضِّ في آيات الله ومعانيها، في وحدة الإنسان، وإخاء المسلم، وبرّ الرحم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]. ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: ٢٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٨].

" كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى"؛ "لا يأتني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم"؛ "يا فاطمة بنت محمد إني لا أغني عنك من الله شيئاً"؛ " "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"؛ " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، وكان الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه"؛ "المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً"؛ "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى لـه سائر الجسد بالسهر والحمى".

وكان الطفل يقرأ ويتجول ذهنه في ضبابية وحيرة: في تاريخ الأمة، وفي صراعاتها، وصراعات قبائلها وشعوبها وأعراقها وألوانها، على غرار ما كان يجري في الأندلس، ولا يكاد خياله يعي معنى هذه القبليات والعصبيات، وهذه الشعوبيات والعرقيات. حتى إذا شبَّ وآذنَتْ شمسُ الطفولة وبراءتها بالرحيل، وغادر الطفل بيضة أرض الحرم إلى فضاء الجزيرة وبلاد العرب، ثم طوّف في أنحاء الأرض شرقاً وغرباً؛ حيث وجد

الناس عناصرَ وعرقياتٍ وقبلياتٍ وشعوبياتٍ وقومياتٍ وعصبياتٍ وألسنةً وألواناً وحدوداً وقيوداً وغربةً وتوجساً وكراهيةً. حينها بدأ ذلك الصبي يدرك عمق مأساة الأمة الإسلامية.

لقد جاء الإسلام برسالة وحدة الإنسان وعالميته، وهذا ما جعل منه كُلاً واحداً متكاملاً ينطلق من إيجابية جوهره: روحاً وقيماً وعدلاً وتكافلاً وتراحماً تَجسَّد في شريعة الرسالة، وفي مجتمع الرسالة، فكان مجتمعَ التوحيد والإخاء والعدل والرحمة، وكان مجتمعاً مُنَـزَّهاً عن "نتن" "جاهلية" العرقية والقبلية والشعوبية؛ حيث إخاء الإنسان ومواطنته وجوهره، فذلك هو القاعدة التي يستقر عليها الإنسان روحاً وجوهراً، لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى، وتحمّلِ المسؤولية، وأداء الأمانة.

إنّ رسالةَ الإسلام وقيَمه وثقافته تتلاحم وتتداخل فيها دوائر الانتماء البشري، من النفس الواحدة، إلى الرحم والأهل والدين والإنسانية، بروح العدل والبر، وتشمل الإنسان كل الإنسان. ولا غرابة في أنّ أبناء رسالة الإسلام وجيل الرسالة قد اتصفوا بأسمى صفات المحبة والإيثار ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

العرقية العنصرية تلوث عقدي ثقافي اجتماعي خطير:

من المهم أن نفرق بين العصبيات والعنصريات الجاهلية من جهة وصلة الرحم الإسلامية من جهة أخرى؛ فالعصبيات والعنصريات هي صفات حيوانية، وفرقةٌ وظلمٌ. أمّا صلة الرحم الإسلامية فهي رحمة وتواصل وعطاءٌ،

يأخذ فيها القوي بيد الضعيف، والكبير بيد الصغير.

ولهذا فإنّ الإسلام بقدر ما ينهى عن العصبية والعرقية، ويؤكد على معاني العدل والإخاء الإنساني ﴿وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ﴿وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ﴾ فإنه يوصي بصلة الرحم، ويدعو إلى البـرِّ بذوي القربى توثيقاً للروابط الإنسانية، وإشاعةً لروح المحبة والتكافل والترابط في المجتمع، بل إنّ الإسلام يتوسع في هذه الروابط ليخلق إخاء الرضاع، ويتوسع في حقِّ قربى الجار، وكل هذه الروابط هي روابط إخاء وتراحمٍ لا يشوبها ظلمٌ ولا جورٌ ولا عدوانٌ على حقٍّ ولا إنكارٌ لكفاءة.

ليس عبثاً أنّ أحد أركان الإسلام -الحج- هو في جوهره رمزٌ لوحدة الإنسان وإخائه؛ ويبدو ذلك جلياً حينما يتجرد المسلمون من كلِّ ما يمايز ويفرق بينهم؛ ليقفوا في يوم عرفة حاسري الرؤوس، في قطعتي قماش أبيض، لا فرق بين كبير وصغير، ولا غني وفقير، وبأي لغة نطق، وبأي لون ولد، كلهم إخوة، وكلهم لآدم، وكل واحدٍ منهم هو إنسانٌ أولاً وآخراً.

إذا شئنا أن نستعيد روح الإسلام، ووحدة الأمة، وسمو الرسالة، لا بدّ لنا من العمل من أجل تنقية ثقافة أبناء الأمة وعقائدهم وقيمهم من "نتن" العرقية وتظالمها وتلوثها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ١١﴾ [الحجرات: ١١]، ولا بدّ من إعادة قراءة واقعنا المعيش -بناءً على مفاهيم عهد الرسالة وممارساته- وتخليصه ممّا هو فيه من سوء الفهم والتأويل، ومن أحابيل أصحاب الأغراض، ومغالطات أصحاب الأمراض.

إن العرقية هي التجسيد القبيح لتشويه الرؤية الإسلامية وقيمها في شريعة النور الروحانية، حيث الوحدة والإخاء والتعاون والتكافل، وحيث "القوة للحقِّ" في مواجهة شريعة الغاب الحيوانية المادية حيث "الحق للقوة" بما تشتمل عليه من التمايز والتناقض والقسوة والافتراس الذي يعتمد سياسات قوة الأنياب والمخالب والعضلات Power politics والمصالح القومية National Interests.

عالم الحقِّ والنور وعالم الغاب والظلام:

ليست القوة مجالاً للتمايز بين عالم الحق والنور؛ وعالم الغاب والجور والظلام، ولكن التمايز بينهما يكون في موضع استخدام القوة لديهما، أهيَ للحق أم للباطل؟ وللخير أم للشر؟ وللعدل أم للظلم؟ وللتراحم أم للتظالم؟ وللإخاء أم للتمايز؟ ولتعبيد الخلق للخالق أم لاستعباد الخلق للمخلوقين وإذلالهم؟

وإذا كان لكل شجرة ثمرٌ، فثمرُ شجرةِ التوحيدِ الإخاءُ والعدلُ والتكافلُ، وإذا كان لكل شيء ضدٌّ ونقيض؛ فضدّ التوحيد ونقيضه التمايزُ العرقي والاستعلاء العنصري وطغيان القوة وعمشها. لا خير، ولا عدل، ولا سلام، في أرض الإسلام خاصّة وفي أرض الإنسان عامة، إلا بالإخاء والتراحم الإنساني، لهذا ضَعُفَ الإخاء والتراحم، إن لم يكد ينعدم، في عام تلوثتْ مجتمعاتُه وحضارته ونشأتْ أجيالُه على "نتن" تمايز العنصرية والعرقية وعصبياتها ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ

فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ [الأنبياء: ٩٢]. ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴿١٠﴾﴾ [الحجرات: ١٠]. ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وصدق رسول الله ﷺ: "ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية."[(١)]

إذا شئنا أن نستعيد -حقاً- حسَّ الأمة ومفهومَها، وإذا شئنا أن نقضي على أسباب الفرقة والتمزق والتصارع، وإذا شئنا أن يكون الإيمانُ والتوحيدُ والعدلُ والتعاونُ والتناصرُ -حقاً- أساسَ بنائنا، ومنبعَ وجداننا، فلا بدّ من أن نبدأ بتنقية الثقافة والتربية من سموم التمايز والعنصرية والعرقية وتظالماتها واستكبارها؛ لتعودَ الأمةُ وحدةً قويةً متماسكةً ضمن جملة من الدوائر المتداخلة المشتملة على معاني التواصل والتراحم والتكافل والتناصر "ظالماً" أو "مظلوماً"[(٢)] بدءاً من الفرد والأسرة، مروراً بالأهل والأقرباء والشعوب والأقوام، وصولاً إلى الأمة والإنسانية.

ثانياً: الحصاد المر وآثار الانحرافات الفكرية في بناء الأمة النفسي

لم تتوقف آثار الصراع بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية، وما أدت إليه من عزلة الصفوة الفكريّة، على مجرد ابتعاد هؤلاء عن الممارسة

---

(١) السجستاني، سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج٢، ص٧٥٣، حديث رقم: ٥١٢١.

(٢) روى البخاري أنّ رسول الله ﷺ قال: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه." انظر:

- البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٦٣، حديث رقم: ٢٣١٢.

العملية، والغرقِ في جوانب شكلية ونظرية لشؤون سياسة المجتمع وتنظيمه الاجتماعي، ولا على مجرد قصر اهتمامهم على الشؤون الفردية لأبناء الأمـة، بل إنّ الأمر تعدى ذلك إلى تغيّرات جوهرية في فكر الصفوة الفكرية، وفي طبيعة رؤيتها للمجتمع، وإلى صبغ العلاقة بين الصفوة السياسية والصفوة الفكرية بصبغة العداء، وتعارض الأدوار، وتنازع النفوذ لدى عامـة الأمـة. وقد أعطى ذلك للخطاب الفكري والديني بُعْداً سياسياً صراعياً مستمراً، يوزع ولاءات الأمـة وضميرها، ويفقدها الثقة -لأسباب مختلفة- في قياداتها السياسية وأنظمتها الاجتماعية التي بنيت على العرقية وعلى الحيف والاستبداد.

وكان تأثير تلك الثمار المرة على الفكر الإسلامي وعلى اهتمام العلماء؛ غيبة البُعد التربوي الصحيح وأدواته الثقافية والمنهجية، النظرية والعملية، وتخلُّف مؤسساته التربوية التعليمية، مما أدى إلى ممارسات معرفية وتربوية كان لها نصيب كبير في تحطيم القواعد والأسس النفسية التي يقوم عليها البناء الاجتماعي والعمراني والحضاري للأمـة.

لقد كان خطاب الإرهاب وسياسة الإرهاب هما الثمرة الملعونة للعجز الذي أصاب الصفوات المسلمة الفكرية والسياسية، لأنّ العنف -الذي يمثّله ذلك الخطاب- هو وسيلة العاجز للتحكم في مواقف لا يدرك المعنيُّ بأمرها قوانينَ حركتها ولا مفاتيح دوران عجلاتها، وأصبح عامة أبناء الأمة حطب الصراع السياسي بين الصفوة الفكرية والصفوة السياسية؛ وهذه كان همها الحفاظ على مواقع الفرقاء وكسب ولاءاتهم والسيطرة على جموعهم.

لقد كان أساس الإشكال الذي انحرف بمسيرة مجتمع الرسالة هو ضعف العامل التربوي الإسلامي في تكوين الأَعْراب الذين تم تجنيدهم في جيش الفتح، وكان ضعفُ الإعداد والتربية والتوجيه هو -في نهاية المطاف- أداةَ السوء التي أثارت الفتن وأسقطت دولة الخلافة الراشدة، ومكّنت للفكر العرقي القبلي من إقامة الملك العضوض بكل ما حمله الفكـر القبلي -والشعوبي لاحقاً- من تأثيرات عقدية وتغييرات سياسية واجتماعية واقتصادية.

وعلى سبيل المثال فإنّ كافة وثائق منح الأرض على عهد دولة الرسالة؛ التي كانت مِنَحُها وإقطاعاتُها مِنَحاً وإقطاعاتٍ أُعطيَتْ لاستعمال الممنوح فقط وليس لتملّكه، ولكنها فما بعد الخلافة الراشدة تحوّلت إلى ملكية مطلقة للأفراد والزعامات والأسر،[1] وهو أمر يدل على مدى عمق التحولات والانحرافات، واتساع مداها وبعدها عن سياسات العهد النبوي الراشد.

وقد وضح القرآن الكريم ما كان عليه جُلّ الأعراب من بدائية حضارية وضعف في التكوين العقدي والتربوي، مما استوجب العمل على إعادة تربيتهم وتكوينهم النفسي والاجتماعي والحضاري للدخول في مجتمع الإسلام: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ ...﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]. ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا

(1) Habibul, Sayed. "Al-Iqta: A Historical Survey of Land Tenure and Land Revenue Administration in Some Muslims Countries, with Special Reference to Persia", in *the Contemporary Aspects of Economic and Social Thinking in Islam*, Plainfield, ind.: the Muslim Students Association of USA and Canada, 1970.

﴿يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۚ ٩٧﴾ [التوبة: ٩٧]. ولذلك بدأ الإسلام بتعهدهم بالتربية والتعليم، وعمل على إرسال البعثات التعليمية إلى ربوعهم ومنازلهم، إلا أنّ تلك الجهود والسياسات عرقلتها جسامة التحديات العسكرية الفارسية والرومانية، التي كانت تُطبِقُ على دولة الإسلام شرقاً وغرباً وتضطهدُ المسلمين، وتمنعُ الناس من حقهم في قبول رسالة الإسلام، وتناوشُ أطرافَ الدولة وتتربصُّ بهم، وتُعِدُّ العدةَ لتدمير الدولة والمجتمع، وإعادة العرب إلى جاهليتهم والخضوع لسلطانهم.

وهكذا أدى الصراع السياسي، الخارجي والداخلي، إلى إهمالِ دُوَلِ الإسلام للجانب التربوي، وإهمال البُعد المعرفي الإنساني الاجتماعي في دراسة الطبائع والوقائع والمتغيّرات في الزمان والمكان، وبالتالي عدم إدراك أهمية الطفل وتربيته كأساس للتغيير وتصحيح المسار.

وبذا لم تتح الفرصة أمام العقل المسلم، الذي كان يعاني من الاستبداد والإرهاب والانغماس في الجوانب الجزئية والنظرية، لكي يواجه تفاقم تشوهات شخصية الإنسان المسلم وانحراف ممارساته الاجتماعية، فيوجه العناية العلمية اللازمـة لتنمية علوم السنن الاجتماعية، وفهم الطفولة والعناية بالطفل وعلوم تربيته ونوعية ثقافته، ودراسة نفسيته ووسائل تنمية شخصيته وعقليته وقدراته، وجعلها قضيةً مركزيةً علميةً يبذل فيها جهد البحث والدراسة والملاحظة؛ لمعرفة طبائعها وسننها ومفاتيح أسرارها وكوامن طاقاتها، والأساليب والإمكانات والأهداف المناسبة المتطورة لمواكبة حاجاتها وتحدياتها.

هذا القصور يُـعَـدُّ من أهم الأسباب الحقيقية التي تفسِّر تخلُّف الأمـة واستعصاءها على الإصلاح والنهوض حتى اليوم، وهو ما يفسِّر في الوقت نفسه نجاح جهود النهضة الأوروبية الحديثة، التي جعلت -في ضوء رؤيتها الكونية العلمانية الليـبرالية الجديدة، ومناهج معرفتها الحسية والعقلية- من القضية التربوية المبنية على أسسٍ علميةٍ تجريبيةٍ أساسَ نهضتها، وحجرَ الزاوية في تطوير طاقاتها.

obeikan.com